تشريح الأساطير في ضوء العلم الحديث -رؤية أنثروبولوجية-

Antomy of myths in the light of modern science -an anthropological vision-

فتيحة عاشوري [1*]

[1] جامعة الشّاذلي بن جديد، الطارف (الجزائر) .

تاريخ الاستلام : 17 فيفري 2025 ؛ **تاريخ المراجعة :** 15 ماي 2025 ؛ **تاريخ القبول :** 04 جويلية 2025

ملخص:

تمثّل الاسطورة طفولة الفكر الإنساني، بينما شكّل العلم مراحله المتقدّمة، لذلك قيل أنّ الأسطورة علم بدائي، وأنّ العلم أسطورة متقدمة؛ فكما شكّلت الأساطير من خلال خيال الإنسان تصوّراته حول الإنسان نفسه، ورؤيته للكون والعالم والوجود، فإنّ هذا الخيال الأسطوري أعاد العلم الحديث تشكيله ماديا من خلال فك بعض الألغاز والشّفرات الكونية التي لطالما أرّقت الإنسان، وجعلته موضع تساؤل أمام مساقات غيبية، فأدرك بعضه وظلّ معظمه أحلاما ما انفكت تراوده، ويسعى جاهدا لمطابقتها بخيالاته، ولو بشيء من الرمزية، من هنا جاء سعينا للبحث في كيفية تحوّل الخيال الأسطوري من الصورة التي تشكّلت في سياق المعرفة الأوّلية والخبرة السابقة إلى صورة أكثر عقلانية وتجربة معرفية؟، وكيف ألهم المنطق الأسطوري العلم للبحث في خبايا الإنسان، وأسرار الكون وتعزيز التقدّم العلمي، وتحفيز العلماء على التفكير والتحليل والبحث المستمر.

الكلمات المفتاحية: مقاربة؛ الأساطير؛ تشريح؛ العلم؛ أنثروبولوجيا.

Abstract:

Myth represents the childhood of human thought, while science represents its advanced stages, so it has been said that myth is a primitive science, and science is an advanced myth; just as myths have to form perceptions about man himse, and his vision of the universe, the world and existence, this mythical imagination has been reshaped materially by modern science through deciphering some of the cosmic mysteries and ciphers that have always troubled man and made him question the unseen, some of which he realised and most of which remained dreams, and he strived to match them with his imaginations, albeit with some form of symbolism, Hence, we sought to investigate how the mythical imagination transformed from the image formed in the context of initial knowledge and previous experience to a more rational image and cognitive experience, and how mythical logic inspired science to investigate the mysteries of man and the secrets of the universe, promote scientific progress, and motivate scientists to think, analyse, and continuous research.

Keywords: Mythology; Anatomy; Science; Anthropologys; Perspective.

[*]Corresponding author: e-mail: f.achouri@univ-eltarf.dz .

1- مقدمة

غالبا ما يكون غالبا ما يكون هدف البحوث من الدراسات الشعبية أنثروبولوجيا بحتا؛ أي البحث في حياة الإنسان ومنهجه من حيث ماهيته ووجوده وكينونته، وكذا سعيه الدؤوب لإيجاد سبل التوافق مع نفسه، ومع غيره والعالم بحسب قوانين تتعارف عليها الجماعة، تتناسب طردا مع الأوضاع والسياقات، وتتماهى معها تعبيرا عن ظاهرة أو مجموعة من الظواهر الإنسانية والاجتماعية واللغوية...هي في مجملها حصيلة خبرات وتجارب صقلت بفعل الذائقة الجماعية، تحولت مع مرور الزمن من ممارسات حاضرة بالقوة إلى مسلمات، ترسخت بفعل التجربة إلى قيمة ذات حضور فعلي، تستدعي البحث في مدى تأثيرها على الأفراد والجماعات، ومدى فاعليتها في ترسيخ الهويات من خلال إعادة إخضاعها للاختبار بالدراسة، والتحليل، والنقد وفق مناهج علمية حديثة، فتقرأ قراءة نسقية مجهرية تستقرئ وظيفتها الفعلية، وأثرها على واقع الإنسان المعاش، غايتها إعادة بعثه من خلال إعادة إنتاج المعنى يتوافق والصياغة الجديدة لمقاربة مفهوم الإنسان في كليته، بحيث يتماهى مع السياقات الجديدة وصيرورتها، وكذا مركباتها التحتية استنادا إلى الوظائف الحيوية التي يؤديها التراث الثقافي في الحفاظ على الثوابت والقيم التي شكلت هويتنا.

ومن هنا جاءت ورقتنا للبحث في كيف تتحول التجارب التراثية من الصورة التي تشكلت في سياق الخبرة، إلى صورة أكثر عقلانية ونضجا ومعرفة في إطار من الأنثروبولوجيا المعرفية التي تهتم بهذا النوع من البحوث التي تعنى بكيفية تحول الميثوس إلى اللوغس؟، أي في التطور المعرفي والفكري الذي ارتبط بقدرات الفرد ومدركاته العقلية، ومدى استجابتها في إعادة صياغة المفاهيم والرؤى، ومسايرتها لروح العصر، وهذا يقودنا إلى علاقة المعرفة بالثقافة الشعبية، وبالفن الشعبي عموما، فلطالما كان التراث المعرفي البدائي مصدر إلهام لأكثر المعارف والعلوم الحديثة، لاسيما الأساطير التي اعتبرت ضربا من الحكمة والتأمل، وأسلوبا في المعرفة، وكشفا لغياهب الوجود ومغاليقه، ومحاولة لإخماد قلقه، برهنت عن قدر كبير من الوعي الفكري للذات في رحلتها التي استفزت مختبرات العلم الحديث، فكانت من ضمن منطلقاته في تقصي الحقائق، واستقرائها، واستكناهها بوسائل أكثر حداثة، خاصة فيما يتعلق بمسائل الخلق والتكوين، كما ألهمت أساطير الخلود، وقصص الأولين مختبرات التحليل العلمي، الذي أعاد اختبارها، وإنتاجها وفق مباحث وآليات العلم الحديث، فاستحدثت مناهج فكانت الأنثروبولوجيا العلم الحاضن لمختلف المعارف والثقافات الإنسانية.

أولا: الأسطورة وعي أنثربولوجي معرفي متجدد:

تطوّرت المعارف الإنسانية عبر محطات فارقة، حيث مضى الفكر البشري في مسار متدّرج مشحون بالأسئلة الكبرى، متلهّفٍ للحفر في غياهب المجهول، فانطلقت الرحلة من رحم الأسطورة التي مثّلت لحظة المخاض الأولى لنشوء الوعي، إذ صاغ الإنسان عبرها تفسيراته البدائية للكون والوجود، ثمّ جاء الدّين بوصفه إعادة تشكيل جذرية للإنسان؛ إذ أسهم في تنقيته من التصورات الخرافية للأسطورة، فكشف له أفقا جديداً

لفهم ذاته وعالمه، ومع بروز الفلسفة التي تعاضدت مع الدّين في سبر أغوار الفكر الإنساني، كاشفة عن زوايا معتمة في الرّوح والعقل، لكنّها سرعان ماشقّت طريقها مستقلّة، متكئة على العقل الخالص، جنبا إلى جنبٍ مع العلم في قطيعة واعية مع الأسطورة والدّين، لتؤسّس بذلك مرحلة جديدة من الإدراك الإنساني، شهدت فيها المعارف طفرة نوعية في مختلف الحقول والميادين.

تعتمد طبيعة الإنسان في وجوده واستمراريته على ركنين جوهريين، إذلك أنّ كلّ فرد يولد من رحم الحياة محمّلاً بإمكانيات خام أودعها الله فيه، ينطلق عبر مسار تطوّري تتخلّله تحوّلات هامّة، ومع كلّ خطوة يخطوها في درب العمر تتنامى ملكاته وتتراكم معارفه، مدفوعا بحاجاته البيولوجية ومتفاعلاً مع بيئته في تلاحمٍ يعكس اندماجه العميق بالطبيعة، هذه الطبيعة بسطوتها وجبروتها لم تكن مجرّد خلفية لحياته، بل أصبحت محركاً رئيسياً لتشكّل وعيه، إذ أمدته بقدرات عقلية مكّنته من إدراك وجوده في إطار الجماعة، وأثارت في نفسه أسئلة كبرى ظلّت تُؤرّقه عبر العصور: ماسرّ الحياة؟ كيف نشأ الكون؟ أيُّ قوى خفية تحكم هذا الوجود؟ وما المصير الذي ينتظره بعد الموت؟.

لم يجد الإنسان أمام هذه الألغاز التي عجز عقله البدائي عن فكّ رموزها ملاذاً سوى الأسطورة، فكانت نافذته الأولى نحو الفهم، وأداته السّحرية لسبر أغوار المجهول، لم تكن مجرّد حكايات عابرة، بل كانت تجسيداً لوعيه، وتعبيراً عن رؤاه، ومنهجاً تأويلياً شاملاً صاغ به معارفه، " فكانت الأسطورة كل شيء بالنسبة له، كانت تأملاته وحكمته، منطقه وأسلوبه في المعرفة، أداته الأسبق في التفسير والتعليل، أدبه وشعره وفنه، شرعته وعرفه وقانونه، انعكاسا خارجيا لحقائقه النفسية الداخلية، فالأسطورة نظام فكري متكامل استوعب قلق الإنسان الوجودي وتوقه الأبدي لكشف الغوامض الّتي يطرحها محيطه" (السواح، 1996م، صفحة 19)، فكانت دينه الأوّل وتاريخه المقدّس الذي خطّ عبره فهمه المبكّر للكون والحياة.

ليست الأسطورة نتاجا عفويا من ابتكار جميع الأمم البدائية، بل تنبثق من عقلٍ فذٍّ، متّقد الذكاء، نافذ البصيرة، واجه أسئلة الوجود والمصير كما فعل سائر البشر، لكنّه لا يركن للحيرة، بل ينحت بإبداعه إجابات تفيض بالتأويل، فتلامس وجدان قومه، وتتوارثها حتى تصير يقينا جمعيّاً متجذّراً في الذاكرة الجماعية، ممتداً عبر الزمان والمكان، وهكذا تنطلق الأسطورة من وعي فردي لكنّها لا تلبث أن تُؤسّس لرؤية فكرية جديدة، تتبدّى في رموز وأساطير تشكّل أفق الإدراك الإنساني، ذلك أنّ الأسطورة "صممت لمساعدتنا على التعامل مع المآزق البشرية المستعصية، وإعانة الناس على تحديد موقعهم في العالم وتحديد وجهتهم فيه" (أرمسترونغ، 2008م، صفحة 11)، إذ لطالما شكّلت الأسطورة مرآة عاكسة لخوالج الإنسان، وصدى لصراعه مع إشكاليات الخلق والنشأة وأصل الأشياء ومسائل الحفر والبحث فيها، فلا تكاد توجد أمّة إلاّ وقد صاغت في مخيّلتها حكايات تفسّر بها أسرار الحياة والكون.

ثانيا: الأسطورة عتبة علمية:

يلتقي الفكر يلتقي الفكر البشري في تأملاته العميقة حول نشأة الكون، فيكشف عن تصوّر مشترك يتجلى في الأساطير التكوينية؛ إذ هو "حالة من العماء المائي، ساكن، لا متمايز، لا متشكّل، في زمن سرمدي متماثل، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كأنه عدم. وفي لحظة معينة، هي هزّة ودمار، يليها بناء جديد، ينبثق الكون من لجة العماء، ويبدأ النظام من قلب الفوضى، ويتّحد الشكل من صميم الهيولى لحظة يقرّر فيها الآلهة خلق العالم، ووضع أسس الكون والحياة، فيبدأ الزمن الذي نعرفه الآن، وتتخذ الأشياء شكلها الذي نراه اليوم" (السواح، 1996م، صفحة 27) ، إلاّ أنّ هذا النّص وإن كان يصوّر لحظة الخلق وبداية النظام الكوني، فإنّه يضيء أيضا مشهد انتقال الآلهة من حالتها الغيبية المطلقة إلى وجودها الفاعل الملموس، دون أن يكشف عن الظروف التي أوجدتها أو حتميات نشوئها.

يتجلى هذا الحدث الكوني كلّ حولٍ، حيث تعيد الآلهة بمشاركة البشر تكرار فعل الخلق الأوّل عبر طقوس سنوية رمزية تجعل الإنسان شريكاً حقيقياً في إعادة رسم ملامح عام جديد، تستجيب لتحديات العصر الذي يحياه، فيتحوّل بذلك إلى عنصر فاعلٍ في مسيرة الحياة، مشاركاً بوعيه وإرادته في تدفق الوجود.

فتلك النّصوص الأسطورية والملحمية ليست مجرّد حكايات شعبيّة، بل مرآة لفكر واعٍ، قادرٍ على صياغة منظومات فكرية متماسكة، تستند إلى المنطق والملاحظة العينية، وتُحكِمُ ربط الأسبابِ بالنتائجِ، ورغم اختلاف تفاصيلها، فإنّها تشترك جميعا في نموذجٍ تكويني موحّدٍ، يتجلى في الأسطورة السومرية التي تنص على أنّه:

1. " في البداية كانت الإلهة "نمو" ولا لأحد معها، وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء.
2. أنجبت الإلهة نمو ولدا وبنتا، الأول "آن" إله السماء المذكر، والثانية "كي" إلهة الأرض المؤنثة، وكانا ملتصقين مع بعضهما وغير منفصلين عن أمهما نمو.
3. تزوج "آن" بـ"كي" فأنجبا بكرهما "أنليل" إله الهواء الذي كان بينهما في مسافة ضيقة لا تسمح له بالحركة.
4. لم يطق "أنليل" الإله الشاب النشيط ذلك السجن، فقام بقوته الخارقة بإبعاد أبيه "آن"عن أمه" "كي"، رفع الأول فصار سماءً، وبسط الثانية فصارت أرضا، ومضى يرتع بينهما.
5. كان "أنليل" يعيش في ظلام دامس، فأنجب ابنه "نانا" إله القمر، فيبدّد الظلام في السماء وينير الأرض.
6. أنجب "نانا" إله القمر بعد ذلك "أوتو"إله الشمس الذي فاقه في الضياء.
7. عد أن أُبعدت السماء عن الأرض، وصدر ضوء القمر الخافت وضوء الشمس الدافئ، قام "أنليل" مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى" . (السواح، 1996م، الصفحات 32-33)

فمنذ أن شرع الإنسان في تأمّل أسرار الوجود، ظلّت تساؤلاته حول نشأته ومآلاته مرهونة بتطور الفكر عبر العصور، وفي مسعاه الأزلي لفهم الكون كان يُعتقدُ "أنّ العالم بكل مظاهره المتنوعة يخضع لترابطات وقوانين معينة...تساعده في السيطرة على الطبيعة المحيطة به وإخضاعها لرغباته ومصالحه" (السواح،

1996م، صفحة 10)، لكن سرعان ما تهاوى هذا الاعتقاد ، ليصطدم بحقيقة قاسية مفادها أنّ تلك الروابط لا تخضع لإرادته كما توهّم، فراح يبحث عن إجابات في الأسطورة/ متخيّلاً إياها قوة سحريّة تتجلى عبر طقوس غامضة وتعاويذ مهيبة، تستمد سلطانها من عوالم خفية لا يدرك أسرارها إلاّ أولئك الذين تمرّسوا في خباياها، ولم يكن السّحر في نظره مجرّد حرفة، بل علماً عميق الغور، امتزج لاحقا بالكيمياء (السيمياء)، مرتكزاً على العقاقير والأعشاب/ متكئا على الدربة والتجربة، ومه مرور الزمن بدأ العقل الإنساني ينحو منحا آخر باتّجاه اليقين بوجود قوى إلهية تقف وراء تجليات الطبيعة، فانفتح على مرحلة جديدة من مسيرته الفكرية، مرحلة اتّخذ فيها الدّين موقعه كمصدر لمعرفة لا تنفصل عن جوهر الوجود الإنساني، فكان انعكاساً روحياً لطموحه الأزلي في إدراك المطلق.

لم تخبُ معظم الأساطير الأولى التي تناولت قضايا النشأة والحياة والموت تحت ظلال الأديان السماوية، بل ظلّت حاضرة بأساليب شتى، متجذّرة في الوجدان الإنساني؛ فقد قامت المسيحية باستيعاب بعض ما أوردته هذه الأساطير وأعادت تشكيلها ضمن إطارها الفكري، بينما أعاد الإسلام تقديم بعض عناصرها برؤية جديدة تتناغم مع منظومته التوحيدية، ويعود ذلك إلى الصّلة العميقة التي تربط بين الفكر الأسطوري والدّيني، إذ ينبثق كلاهما من ذات التساؤلات الجوهرية حول الوجود والمعنى، ممّا يجعل من العسير رسم حدٍّ فاصل بين انحسار الأسطورة وبزوغ الدين، "فكلاهما وجدا أصلا في نفس الظواهر الأساسية من الحياة الإنسانية ولا نستطيع في تطور الحضارة الإنسانية أن نعين نقطة تنتهي عندها الأسطورة ويبدأ الدين، فالأسطورة منذ البدء دين بالقوة" (الكيلاني، 1998م، صفحة 145)، إلاّ أنّ الدّين يمثّل التطوّر الأسمى لهذا الوعي الأسطوري، إذ شهد الفكر الإنساني تحوّلاً من تعدّد الآلهة إلى توحيدها تحت سلطة إله واحد، يمسك بزمام الخلق والتكوين، ويوّجه مجرى الحياة والموت، متجاوزاً بذلك تصوّراته الأولى عن الكون نحو وعي أكثر نضجاً وعمقاً.

تتعانق لرؤية الدينية مع الاكتشافات العلمية في تناغم أخّاذ، حيث يكشف العلم الحديث عبر نظرية الانفجار الأعظم النقاب عن لحظة الميلاد الكوني الأولى، تلك اللحظة التي انبثق فيها الكون من العدم، في مشهد يتماهى بإعجاز مذهل مع ما خطّه الوحي الإلهي منذ قرون، وتعتبر "نظرية الانفجار الكوني الأعظم أدّق النظريات التي تفسر نشأة الكون...وقد أظهرت النظرية أنه عند بداية خلق الكون (حدوث الانفجار الأعظم) تبدّت بعض المعالم الخارقة التي لا تخضع للقوانين الفيزيائية الآن، والتي لا يمكن للعلم وحده أن يفسرها، وقد سار الكون عقب هذا الانفجار من حالة اللاّانتظام إلى الانتظام، ومن المادة ذات الوظيفة الأقل داء وكفاءة إلى وظيفة أفضل من ذلك. ولا شك أنّ الاتجاه إلى الأكثر انتظاما والأعقد بنية والأكفأ أداة ووظيفة يحتاج بشكل حتمي إلى تدخل ذكي وفعّال من خارج المنظومة، ويؤكّد وجود التصميم الذكي والتّطور الموجه الذي لا دور للمصادفة فيه" (شريف، 2011م، الصفحات 367-368)، قد أشار القرآن الكريم قبل أكثر من أربعة عشر قرنا

إلى هذه الحقيقة الكونية العميقة في قوله تعالى في سورة الأنبياء الآية 30:﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُما وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.

إنّها لحظة الرتق، حيث كان الكون وحدةً متماسكةً، ثم لم يلبث أن انفتق في انفجار عظيم، ليولد منه المكان والزمان، المادة والطاقة في مشهد يتطابق بشكل مدهش مع ما أقرّته الفيزياء الحديثة، ثمّ جاءت الآية 11 من سورة فصلت لترسم مشهداً لاحقاً من مراحل التكوين، وذلك في قوله الحقّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَّانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، وهنا تكتمل الصورة؛ فالكون الوليد لم يكن سوى دخان كثيف سيمضي عبر مسيرة من التطوّر الدقيق ليتحوّل إلى مجرات ونجوم وكواكب، وفق نظام بالغ الإحكام، لا مكان فيه للعبث أو المصادفة، بيد أنّ السؤال المحوري يظلّ قائما: كيف انتقل الكون من فوضاه العارمة إلى هذا التناسق البديع؟ وكيف تشكّلت من تلك البداية البسيطة منظومة تتّسم بالدّقة المطلقة والكفاءة الفائقة؟، هنا فقط تتجلى روعة التطوّر الموجه الذي لم يكن عشوائيا ولا اعتباطيا، بل كان محكوما بإرادة حكيمة، تسير وفق مشيئة عليا.

والمثير للدهشة أنّ الحضارات القديمة -رغم بساطة أدواتها- لم تكن بعيدة عن جوهر الحقيقة العلمية؛ إذ عكست تصوراتها عن نشأة الكون حدساً فلسفيا عقيماً، أثبت العلم الحديث أن بعضه لم يكن محض خيال، بل انعكاساً مشفّراً لحقيقة كونية مدهشة، وهكذا حين نمعن النظر في أرجاء الكون، نرى بصمة الإبداع الإلهي ماثلة في كلّ ذرة، ونقرأ في أفلاكه الشاهقة وكياناته اللاّمتناهية قصّة الخلق والتكوين، حيث يتماهى العلم مع الإيمان في سيمفونية كونيةٍ ساحرةٍ، تشهد أنّ وراء هذا الوجود عقلاً مدبراً، وإرادة حكيمة، وتصميماً واعيا خلاّقاً، أليس من العجيب أن يكون العلم رغم تقدّمه، مجرّد كاشفٍ لما كان مسطراً منذ الأزل؟، ولأدّل على ذلك مطابقة طرف المعادلة الرمزية الأسطوريّة السالفة الذكر التي تتماهى مع ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشافات علميّة، أمكن له قراءتها على النحو الآتي:

في البدء لم يكن موجودا سوى المياه التي صدر عنها كلّ شيء وكلّ حياة.

2. ظهرت في وسط هذه الحياة الأولى جزيرة يابسة على هيئة جبل قبته هي السماء، وقاعدته هي الأرض، ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء العنصر المادي الثالث بعد المياه والتراب.

3. من الصفات الأساسية لهذا العنصر الجديد التمدد، وبتمدد هذه المادة الغازية تباعدت السماء عن الأرض (اتساع الكون).

4. لم يكن القمر السابح في الهواء إلاّ نتاجا للهواء وابنا له، وربما كان من نفس العنصر أيضا، أمّا الشمس فهي الابن الذي فاق أباه القمر قوة، وخلفه على عرش السماء فيما بعد.

5. بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض، وغمرت أشعة الشمس الدافئة وجه البسيطة تهيأت الشروط اللازمة للحياة، فظهرت النباتات والحيوان ثم خُلق الإنسان" (السواح، 1996م، صفحة 33).

لم تقتصر الأساطير يوماً على إلهام العلم في سعيه لكشف أسرار نشأة الكون، بل لعبت دوراً بارزاً في صياغة الفرضيات العلمية وتوجيه البحث العلمي نحو استكشاف حقيقة خلق الإنسان؛ فحدث أن حصل التوافق بين ما أقرّته جلّ الأساطير، وأكدّه الدين، رغم أنّ العلم الحديث لم يثبت بشكل قاطع ارتباط جسد الإنسان بتراب الأرض، ولكنّه ذكر لنا أنّ العناصر المكونة لجسم الإنسان هي ذاتها تلك الموجودة في التراب، ومع ذلك يبقى القرآن الكريم المعجز في بيانه والصادق في خبره، قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشّك حقيقة خلق الإنسان من تراب في مواضع عديدة.

لا جدال في أنّ المخيال الأوّل في شقيه الفردي والجمعي، قد اضطلع بدورٍ أساسي في انبثاق شتى العلوم والفنون، إذ كان بمثابة المنبع الأوّل الذي تدفقت منه ينابيع المنطق والرياضيات، الطب والهندسة، الفلك والموسيقى، فضلاً عن الكيمياء، ومن رحم الأساطير والقصص الشّعبية وُلدت الشرارات الأولى للخيال العلمي، حيث تحوّلت الأماني الحالمة إلى ابتكارات علميّة غيّرت مجرى التاريخ، لقد "رسم أجدادنا بأحلامهم صوراً لمارِدٍ جبّارٍ يصنع المعجزات، وبساطٍ سحري يحلّق في السّماء، وخاتمٍ خارقٍ يحقّق المستحيل، وبلوراتٍ غامضةٍ تكشف عوالم خفية، غير أنّ هذه التصوّرات بقيت رهينة الخيال إلى أن جاء العلمُ فحقّقها على أرض الواقع؛ فباتت الطاقة الذريّة أعظم من كلّ مارِدٍ، والطائرات النفاثة أسرع من أي بساط ريحٍ، التكنولوجيا أشدّ تأثيراً من كلِّ الخواتم السّحرية، والتلفاز نافذةً تشرع على أفق أوسع من أي بلورة سحرية". (عزام، 1994م، صفحة 7)

وفي هذا السّياق تبوّأت الاعمال الأدبية العريقة موقعاً محورياً في تشكيل ملامح الخيال العلمي، إذ استلهم الأدباء من ألف ليلة وليلةٍ و مائة ليلة وليلة للباهي البوني، وحكايات السندباد البحري، رؤى خلاّقة جسّدت عوالم سحرية تحاكي الواقع المستقبلي، كما كان لأدب العصور الوسطى كالكوميديا الإلهية لدانتي الليغيري Dante Alighieri والأوديسة لهومر أثرٌ بالغٌ في تأصيل المخيال الإبداعي، ذ كانت هذه الأعمال جسوراً امتدت بين الحلم والاكتشاف، وبين الخرافة والعلم، لتشكّل بذلك منارة ألهمت المفكرين والأدباء في استشراف العلم والتقدّم.

بدأت الأسطورة -منذ أن التقى نور الفلسفة بمنهج العلم- تفقد سطوتها أمام وهج العقل الناقد، متراجعة تحت وطأة التحليل والتشكيك، بعدما كانت يوما ما الإطار الأسمى لتفسير الوجود وأسراره، هذا النقد العقلي دفع سقراط حياته ثمنا لتمرّده على معتقدات عصره، بينما مضى أفلاطون وأرسطو في ترسيخ سلطان العقل، جاعلين منه الميزان الأوحد للحقيقة، ومع انبلاج العصور الحديثة وتطوّر المناهج العلميّة، تدرّجت الأسطورة إلى هامش الحكايات المُسليّة، ليحلّ محلّها منهج التجريب الدقيق الذي جعل من الواقع المحسوس ميداناً للبحث والاستقصاء، ورغم ذلك لم تنطفئ جذوة الأسطورة، بل بقيت معينا لا ينضب للإلهام، إذ لم يكن العلم سوى امتداداً لرؤى الأسلاف في ثوب جديد، تتغيّر أدواته، ولكن تبقى روحه جوهرة البحث

والتقصي، وكما كانت الأساطير مهداً للمعرفة والثقافة والتاريخ، فقد حملت بين طياتها رموزاً ومفاهيم دفعت العقل البشري إلى تجاوز حدوده، لتصبح الشرارة التي أوقدت فتيل الاكتشاف والابداع.

لقد جسّدت الاساطير أولى تأملات الإنسان حول الكون والخلق والمصير، واستنبطت رؤى عميقة عن الحب والقوّة والموت، ذلك اللغز الأزلي الذي أرّق الفكر البشري، وأجّج رغبته المحمومة في تجاوز الفناء، ولم يكن سعي العلم لاكتشاف إكسير الحياة إلاّ امتداداً لذلك الهوس الأزلي بالخلود، تماماً كما صوّرته ملحمة جلجامش في رحلته المضنية بحثا عن عشبة الخلود، بعدما اختطف الموت رفيقه أنكيدو، لكن النهاية كشفت له الحقيقة الحتمية: أنّ الخلود وهم يطارده الإنسان عبثاً، وأنّ الفناء قدرٌ لا مهرب منه.

غير أنّ هذا الإدراك لم يوقف مساعي الإنسان، بل ألهم البحث العلمي الحديث، ليخوض العلماء سباقاً محموماً لفك شفرات الحياة، وتأخير الشيخوخة، فمثلُ هذه الأفكار كانت الشرارة الأولى لانطلاق أبحاث معاصرة في الطب وعلم الشيخوخة، والتكنولوجيا الحيوية التي تسعى إطالة العمر وتحسين جودة الحياة، وقد تجلّت هذه الجهود في فك ألغاز الحمض النووي البشري، واستكشاف تقنيات الترميم الخلوي، وتطوير زراعة الأعضاء، بل وامتدت إلى مجال الذكاء الاصطناعي، حيث بسعى العلماء لمحاكاة الوعي البشري، في محاولة لإيجاد بدائل رقمية تلامس مفهوم الخلود في بعده الافتراضي.

وكلّها تنطلق من تلك الرغبة القديمة في تجاوز حدود الفناء البشري، ممّا جعل أسطورة جلجامش معادلات موضوعيا للمساعي العلمية الحديثة، بحيث لا يدع مجالا أو "نكران التداخل بين العلم والأسطورة والدين والايديولوجيا، ويبدو أن المجال الوحيد للتداخل، بين العلم والأشكال الأخرى للوعي الاجتماعي، إنما يتعلق بالمجال المعرفي، حيث سيحتل العلم الوظائف المعرفية من هذه الأشكال للوعي، أما طريقة النظر إلى العالم ككل فهي التي يستقيها الوعي السائد من العلوم السائدة، وهي تتطور مع تطور العلم، وفي الحالات التي يتوقف فيها النظر العلمي، أو يترك فيها العلم فجوة معرفية أمامه عندها يأتي الخيال الأسطوري، الديني، والايديولوجي لملء ذلك الفراغ بتقديم صورة مبتكرة عنه. وقد تأثر العلم دائما بالصور العمومية الخيالية التي رسمها الإنسان عن نفسه وعن العالم" (الكيلاني، 1998م، صفحة 36)، لذلك ما تزال فكرة الخلود الفكرة الأكثر جنونا والأشّد سيطرة على العقل البشري رغم الجهود العلمية المبذولة في ظلّ لا أخلاقيات العلم.

لم تكن الأسطورة مجرّد سرد خيالي أو تصورات بدائية ساذجة، بل شكّلت مرحلة أولى من الوعي المعرفي الإنساني، سعى الإنسان عبرها إلى فهم أسرار الكون والوجود من خلال رموز ودلالات مكثّفة، ورغم أنّ هذا التصوّر جاء مغلّفاً بالقداسة، فإنّه لم يكن خالٍ من معانٍ معرفية عميقة، شكّلت رؤيته لمسائل الخلق والتكوين، وهيأت العقل البشري لخوض مغامرة التفكير والتأمّل، ثم ارتقى هذا الوعي إلى مستوى أكثر نضجا مع ظهور المعرفة الدينية، إذ لم يقتصر على منح الوجود معنى، وإنّما فكّك أيضا الغموض الذي أحاط بالرؤى الأسطورية بصورة أكثر وعياً وتحرّراً من قيود الخرافة.

لقد مثّل التوحيد نقطة تحوّل كبرى، إذ نزع عن الإله كلّ تجسيد مادي، ورفع مفهوم التنزيه إلى أسمى مراتبه، بعد أن كانت الأمم القديمة تستسلم لعبادة مظاهر الطبيعة في وعي مشوش، وكان لهذا التحوّل بالغ الأثر في تشكيل وعي روحي وأخلاقي أكثر نضجاً، حيث لم يعد الدين مجرّد طقوس موروثة، بل منظومة متكاملة تضبط علاقة الإنسان بالكون والخالق، وتضعه أمام مسؤولياته الاخلاقية والرّوحية، وقد جاءت النصوص القرآنية والسنة النبوية لترسم معالم نزعة تاريخية أكّدت حضور الإرادة الإلهية في مجريات الأحداث الكونية والاجتماعية، الأمر الذي أتاح لمدارك الإنسان الانطلاق نحو فضاءات أرحب، متحرّراً من ثقل الأسطورة، منفتحاً على آفاق التأمّل العقلي العميق.

لم يقتصر هذا التحرّر على البعد الروحي فحسب، بل انعكس أيضا على تطوّر المعارف الإنسانيّة، حيث أسهمت العقائد والشرائع الدينية في إزالة اللبس والغموض عن كثير من المفاهيم، فأرست بذلك دعائم يقين معرفي تجاوز حدود الظّن، لا سيما في مسائل النشأة؛ فقد أشار القرآن الكريم في كثير من المواضع إلى وجوب السعي الدائم نحو الحقيقة، مستكشفاً آفاق المعرفة عبر مسارات متجدّدة حتى جاءت العلوم الحديثة لترسّخ منهج البحث القائم على الدّقة والتجريب، ورغم نزعتها العقلانية الصارمة لم تتجاهل الإرث الأسطوري، بل أعادت قراءته وتأويله برؤية أكثر وعياً، لتكشف عن نظام كوني بالغ الإحكام، تتجلى فيه حكمة عليا تقف وراء هذه الهندسة الإبداعية العظيمة والمذهلة.

4- الخلاصة:

لطالما كانت الأساطير الوسيلة الأولى التي عبّر بها الإنسان عن فهمه للعالم والوجود، حيث جسّدت محاولاته البدائية لتفسير الظواهر الطبيعية والكونية، ومع تطوّر الفكر العلمي لم تعد الأساطير مجرّد روايات خيالية، بل باتت موضوعاً للدراسة والتحليل، إذ ألقى العلم الحديث عبر مناهجه التجريبية والاستقصائية ضوءاً جديداً على معانيها ورموزها، من هذا المنطلق أسفرت دراستنا حول الرؤية الأنثروبولوجية لتشريح الأساطير في ضوء العلم الحديث عن استخلاص جملة من النتائج نوردها في الآتي:

- أعاد العلم الحديث قراءة بعض الأساطير كرموز تحمل تصورات الإنسان الأولى عن العالم والوجود، وخاصة قضايا النشأة والتكوين فحوّلها إلى بيانات قابلة للدراسة، مستخلصاً منها حقائق علمية جديدة.
- كانت الأسطورة أوّل محاولة لفهم الوجود، ثم جاء التوحيد ليؤسس منظوراً أكثر تجريداً، ممهّداً لنشوء المنهج العلمي القائم على التجربة.
- رغم هيمنة العلم، لم يلغ الإرث الأسطوري، بل أعيد تحليله عقلانياً، كما في دراسات الطوفان جيولوجيا أو البحث في إكسير الحياة علمياً.

- شكّل تكامل الأسطورة مع الدّين والعلم حلقات مترابطة، أدت أدوارها عبر التاريخ في مواصلة المعرفة الإنسانية بحثها نحو الحقيقة، فأضاء كل منها درب المعرفة بأسلوبه الخاص حتى بلغ الإنسان عصر التحليل العلمي الدقيق، الذي كشف جوهر الرموز الأسطورية وأعاد تأويلها وبناءها في ضوء المعطيات الحديثة.

- **المراجع:**

1. شمس الدين الكيلاني. (1998). *من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي: الأسطورة الدين الايديولوجيا العلم، ط1*. بيروت: دار الكنوز الأدبية.
2. عمرو شريف. (2011). *كيف بدأ الخلق، ظ1*. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
3. فراس السواح. (1996). *مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، ط1*. دمشق: دار علاء الدين.
4. كارين ارمسترونغ. (2008). *تاريخ الأسطورة، ط1*. لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون.
5. محمد عزام. (1994). *الخيال العلمي في الأدب*.، ط1. دمشق: دار طلاس.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

عاشوري فتيحة، (2025) **تشريح الأساطير في ضوء العلم الحديث -رؤية أنثروبولوجية-**، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 16 (العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 36-45.